الفصل الاول

طفولتي

كان ابي وجدي عاملين من عمال المناجم ، فترسمت خطاهما ، ونشأت عاملاً كادحاً . وكلما عدت بذكرياتي الى اعمق اعماق ماضي ، طالعتني حياة العامل الخشنة : كثير من المتاعب والجهود ، وقليل من السعادة ؛ وكلما راجعت طفولتي ، اطلت منها صور المنجم الكئيب ، ومداخل مربعات الآبار ، وسعي عمال المناجم المجهدين ، سعياً كليلاً حثيثاً ، وسيرهم المتباطيء ، في عمق عدة مئات من الامتار ، تحت الارض . وفي بعض الاحايين ، تبلغني انات الكمان ، واهازيج السباق ، والحان الدوكاس (وهو من اعيادنا الوطنية ، في الشمال) على هذه الشاشة الرتيبة الشاحبة ، من الصور والاحداث ، وعلى نحو اعظم قوة ، وأبلغ جراحاً ، يرتسم مرور العربات السود والخضر ، الملطخة بسواد الفحم ، وحمرة الدماء ، ويستطيل وراءها منظر النعوش الخشبية البيضاء ، المصفوفة في العنابر ، ثم ارى رجالا ونساء واطفالاً ، يتراكضون الى كل ناحية وصوب ، ويتصادمون

ويتدافعون ، ويعودون ، دائرين على انفسهم ، في مكان واحد. ورجال الدرك يحرسون الابواب حيث تتكسر موجة من الجماهير اللجبة الصاخبة . ثم تتصل ذكرياتي ، وتتحلق ، وتتضح ، فالاحداث ادق خطوطاً ، والالوان اكثر ضياء ؛ لقد بلغت السادسة من العمر ، فقد ولدت مع القرن العشرين ، تقريباً : في ٢٨ نيسان سنة ١٩٠٠ .

في يوم مثل سائر الايام ، كنت مع بعض صبية المنجم ، فاستأثر بانتباهنا دوي أصم ، وخطى مسرعة ، ووقع حوافر بعيدة ، على بلاط الطريق ... وكان الناس يندفعون مسرعين في اتجاه واحد . فانضممت اليهم . وكان يطربني ان اعدو كالمهر ، وانخطى الشيوخ اللاهثين ، والنسوة يحملن رضعاءهن على ايديهن الهزيلة ، وكان الصراخ يتعالى :

ـ ذلك في كوريار ... في حفرة ميريكور ... هناك ١٣٠٠ قتيل ... وهكذا في العاشر من آذار سنة ١٩٠٦ كنت اعدو ، وسط الضباب . القارس ، باسرع مما تحتمل ساقاي الصغيرتان ، مجتازاً الكيلومترات السبعة التي تفصل نوايل غودو عن مناجم ميريكور ، على طريق لان . وكان عمال المناجم ، في القرى المجاورة ، يتركون اعمالهم ، وينضمون الى الجماهير الزاحفة ، فالرجال والنساء والاطفال يتدافعون ويتصايحون ، ويعجن بعضهم بعضاً ، متخالطين ، منطلقين ، فكانهم جيش مدحور ، يستطيل عليه ظل الموت ...

وبلغت ميريكور ، فلم ار شيئاً في البدء . ثم تبينت موجة الجماهير وقد تحطمت على حاجز حديدي شاهق ، يتوسط جداراً طويلاً ، من القرميد ، ووراء الجدار ، كان يصطخب رجال سود ، على رؤوسهم قبعات العمل ، ويبدو عليهم انهم منهمكون في معالجة آلات غريبة ، وكانهم يصارعونها ؛ ومن بعيد ، تبدو ابراج المنجم الخشبية ، وبكرات الآبار الهادئة الجامدة ، من خلال الضباب .

وكانت تهيم على المشهد المرعب ، رائحة الدخان المبتل ، ورائحة الاشياء المحروقة ... وما هي الا ان تصاعد النحيب والصراخ ، وتصاعدت الشتائم والأنات ، واخذت النسوة يقطعن شعورهن منتحبات هائمات ، وحدثت هزة . وحركت الجموع رغبة في اقتحام الحاجز ، واخذ الابواب عنوة . فهجم رجال الدرك الفرسان ، وحملوا بخيولهم على الجموع المحتشدة . ولكن هذه الجموع ، المتزايدة بلا انقطاع ، لم تتراجع قيد انملة ، ولم تتخل عن شبر واحد من الارض . وتعالت صيحات حادة ، من هنا ومن هناك :

— اخبرونا بالحقيقة ! قولوا لنا ماذا حدث! دعونا نر ! دعونا ندخل !

— زوجي في قعر المنجم .

— واولادي ايضاً .

اهلي جميعهم هنالك .

واذكر انني عدت اثر ذلك ، مع سائر الاطفال ، الى القرية ، وقد المّ بنا الجهد والهم ، فلبثنا مدة طويلة ، لا نلهو ولا نتشاجر .

وبعد ايام عدت الى ميريكور ، وكان ثمة رجال درك كثيرون . وكان الناس جميعاً يرتدون الثياب السود . وفي جميع المناجم ، وحول المساكن ، وعلى عتبات الاكواخ ، كانوا يجهشون بالبكاء ، اما الاطفال فيحفون بأمهاتهم خائفين ، ويتشبثون بثوابهن . وكان المشهد هو نفسه في القرى المجاورة ، في سالومين ، وبيلي؛ وفي كل مكان ، تحولت العنابر الى معابد تغص بالموتى وبالصلوات . وكان الناس يتحدثون ، معبرين عن اعترافهم بجميل فرق الاسعاف القادمة من وستفاليا (المانيا) ثم سارت ، تحت الثلوج الهاطله ، تلك الجنائز الكئيبة ، ومواكب الضحايا من التعساء ...

وحركت هذه الكارثة الرهيبة البلاد من اقصاها الى اقصاها . فمنذ زمن طويل ، وشعب عمال المناجم الاسود ، يشكو تلك الاجور التي لا تعين الا على الموت، ويشكو العمل الشاق المستعبد ، ووسائل الضمان الهزيلة ، وبدأ الغضب يهدر ويلعلع ، مهدداً الشركات . هاهم الف وثلاثمئة عامل سقطوا قتلى ، بعد ان عانوا في اعماق المناجم اهوال الفزع والاختناق ،

وذلك كله في سبيل ان تزيد ارباح الرأسماليين النخاسين .

ولم ينقض على دفن الضحايا من العمال ، الا قليل ، حتى انشأت الشركات الجشعة تطالب بمن يحل محلهم في اعماق الارض ، وكأنها تطلب ضحايا جدداً . وسرى اليأس والتمرد من كوخ الى كوخ ، وانتظم الجماهير التي نجت من الموت ، رفضٌ واحد مشترك ، واعلن الاضراب .

وسرعان مـــا اطبق على حوض المناجم جيش لا يختلف كثيراً عن جيوش الاحتلال .

وبدأت تتشكل في القرى جماعـات وفرق من العمال ؛ واحتلت الطرق مواكب غفيره ، ولم يكن شأنها شأن الجماهير اليائسة ، المدحورة ، التي رأيناها في العاشر من آذار ، بل كان ثمة رجال مقطبون ، ذوو نظرات قاتمة ، يصرخون مستنكرين ، او يتحدثون ، بأصوات خافتة ، عن اولئك الذين يرقـــدون رقادهم الاخير في المقبرة .

وكانت احدى هذه التظاهرات تندفع في الطرقات ، رافعة امامهـــا العلم الاحمر ، فاصطدمت برجـــال الدرك ، على طريق هينين ليانار ، وفي ذلك اليوم ارادت امي الذهـاب الى السوق ، وكنت في رفقتها مع اختي واخي . وانضممنا الى التظاهرة ... وفجأة حدث في المقدمة توقف سريع ، وسمعت صرخات ، وصفارات ، وهزات عنيفة تسري في الجماهير ، ثم

اشتدت المفاجأة حين بدت الخيل تشق الزحـــام منطلقة بأقصى سرعتها ...

واقترب رجـال الدرك وهم يطلقون النار ، وفصلت عن امي ، ثم أخذت في النيار ، وسقطت بين الاقدام ، وفقدت المقاومـة فانطرحت ، وكانت تمر فوق رأسي ظلال الجيـــاد العالقة ...

نهضت وانطلقت الى فجوة باب من الابواب ، أمتنع فيها ، فرأيت عملاقـــاً يسل سيفه ويدفع مطيته وسط جماعـة من المتظاهرين ، وتشبث بعض المضربين ، بأعنة الجياد ، ولجأ البعض الاخر الى الخنادق والابواب ، وبدأت الحجـــارة تنهال على رؤوس الدركيين ، ومن بعيد ، ظهر جنود الجيش ، يشرعون الحراب ، ويؤلفون صفاً ازرق واحداً يقذف الموت والخراب...

وظل الجنود طوال النهار ، يقومون بدورياتهم في قريتنا ، فيلقون من النوافذ الى داخل البيوت نظرات وقحة . واسدلت امي الستائر ، وليثنا في البيت ، يغمرنا الظلام ، ويبلغ مسامعنا من بعيد ، صليل السيوف . واوقف كثير من المتظاهرين ، وجرح آخرون .

واستمر الاضراب مـا يناهز الشهرين ، شهرين من اليؤس القظيع ، والحرمان العـاتي ، شهرين من العذاب والنقمة؛ ذلك كان مصير عمال المنـــاجم : العمل الخانق المنهك ، والجراح

والانهيارات ، وبخار الفحم ... واذا أجهدهم البؤس فجاروا بعصبيتهم ، تدخلت القوة المسلحة لتعيدهم الى الصواب » .

وفي اثناء الاضراب بذل جدي كيمان بوثري جهوده دون حساب ؛ وكان مناضلاً عمالياً قديماً ، التحق منذ الساعة الاولى بنقابة العمال التي اسسها بيلي . وكان يلذ لي الاصغاء اليه ، وهو يروي قصة حياته ومعاركه ... حياته ؟ لقد تقضّت كلها في ليل الحفر ، ولكنها كانت اسطع ضياء واصفى شمساً من كثير من السير التي مرت تحت ضياء النهار ... لأنهـا كانت تتألق بحبه العـارم لنقابته وللطبقة العـاملة ، وكان يملأ قصصه حركات الاضراب الجديدة ، والمعـارك والجهود ، وحركات الصمود الباسل العنيد في وجه اصحاب المناجم والمصانع ، وفي وجه رجال الدرك والجيش ، وكانت كلها ذكريات تحملها الحماسة على جانحيها ، وتصفق فيها كما تصفق اعلام الحرية ، أسماء بيلي وغيد ولامندان .. يا لها من ذكريات عملت في نضجي أكثر مما عملت الاعوام ...

كان جدي يهاجم « الاخوان » الكاذبين ، هجوماً عنيفاً ، ويخص بحملته النقابة الجديدة « السي جي تي » وهي التي نشأت لمناهضة نقابة بيلي ولامندان الثورية ، وكانت النقابتان قد دخلتا في نزاع عنيف ، وتناحر هائل ، وكان القتال ينشب احياناً بين العمال ، ولم اكن لافهم حقيقة الاسباب التي ألّبت هكذا فريقاً من عمال المناجم على الفريق الآخر . ولكنني

كنت معجباً بهذه الحياة المتضرمة ، الملأى الى اعلى درجات الامتلاء ، وبهذه البطولة التي تبذل كل يوم في خدمة المثل الاعلى للعمال . وكان جدي ورفاقه يزورون المناجم والاكواخ ، بلا انقطاع ، ودون ان ينال منهم الجهد ، باحثين عن رفاق جدد يضمونهم الى النقابة ، وكانوا يناضلون في سبيل كل انسان ، ويحاولون ان يكسبوا لافكارهم واحداً واحداً ، عمال المناجم جميعهم ، هادفين الى انتزاعهم من وهدات الجهل واللامبالاة والخضوع ، فكانوا يصطدمون ببلادة البعض ، وبخوف البعض ، وبكراهية اصحاب الاعمال وتهديدهم ، وبانقسام الطبقة العاملة ، ولكن ما كان يثنيهم عن نضالهم شيء .

* * *

كنا نسكن منزلاً يشبه المنازل العمالية برتابته واتباعه صفوفاً طويلة من البيوت ، التي كانت تضيف الى كآبة سهول الشمال كآبة سوداء ، بما تقذفه مداخنها من الدخان الاصفر والاسود ... في اوائل هذا القرن ، كانت نوايل غودو قرية لا يتجاوز عدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة وكلهم من عمال مناجم الفحم ، او صهر الحديد ، او من الفلاحين الفقراء ...

وكان المنجم ذو الرقم ٤ التابع لشركة «دورج» يستخدم اكثر من الف عامل قبيل الحرب العالمية الاولى ...

وكان جدي يعمل في المنجم ، ووالدي في المصنع ، وسرعان

مما الم به مرض عضال لتعرضه ، مثل سائر العمال ، لبخار الرصاص ، لقد اراد ان ينجو من بخار الفحم فالتحق بالمصنع وكأنه نجا من « الحمام الى الحمام » ...

بلغت الرابعة من عمري ، فدخلت مدرستي الاولى . وفي العام الثاني حدث لي حادث عظيم ، أول مرة في حياتي . فقد ألقيت خطاباً امام كثير من الناس ، ولكن كان ذلك — طبعاً — في حفلة اطفال ، وبمناسبة عيد مدرسي .

كنت احيا في البيت كما اعتاد امثالي من ابناء العمال ان يحيوا . فما ان يشب الطفل عن الطوق ، ويبلغ سن الرشد ، حتى يتحتم عليه معونة اهله . وسن الرشد يلم مبكراً بابناء الشعب .

وكان لنا اجر والدي ، وجنينة صغيرة ، وعشرون ارنباً ، تعتمدها امي للأنفاق على اسرتنا ؛ واحتفظت لي بالمهمات السهلة : فكنت انطلق الى الحقول ، لاعود بالعشب للأرانب ، واذهب الى السوق ، لاشتري بعض حوائج المنزل ، واجمع السماد من الطرقات للجنينة ، وكان علي — ايضاً — ان أعنى باخواني الصغار ...

وكان يتخلل شقاءنا اليومي بعض بوارق الفرح : وهي ايام الاعياد وعيد الدوكاس الوطني بخاصة . آه ما كان اعظم لهفتنا في انتظار الدوكاس ، اذ نستبق موعده بزمن طويل ! وما ان

تبدو عربة العيد الاولى حتى تفقد الصبر . وعند خروجنا من المدرسة ، كنا نسارع محتشدين لمشاهدة العاب الخيل ، ومباهج العيد . وكان اكثرنا جرأة يلمس أنوف الجياد الخشبية ، ويشدها من ذيولها . وهي ذيول من شعر الخيل الحقيقي ! وما اسعد من كان في جيبه فلس ليمتطي الجواد الخشبي مرة ! وكم كانت سعادتنا بسماع الالحان الموسيقية ، ودوي طلقات الرماية ، وصرير دواليب الياناصيب ، وتجاوب ابواق القرية ، واغاني الشاربين المرحة... لقد كنا نعيش يوماً او يومين في حمى السعادة الغامرة ... ثم تستعيد الحياة مجراها الكئيب ...

وكان يشغل اسرتنا ما يشغل جميع اسر العمال ، وكانت الاحاديث في بيتنا تكاد ان تنحصر في الصعوبات المادية ، فالاسعار ترتفع بلا انقطاع ، وفي ايلول ١٩١٠ نشأت حركة تكافح غلاء الاسعار في حوض المناجم .

وكانت ربات البيوت يركضن من باب الى باب ، ويهيئن الرأي لانتفاضة شعبية نسائية . وكانت امي من اشدهن حماسة . وقد عينت ، في احد الاجتماعات ، مندوبة عن نساء نوايل غودو .

وسارت تظاهرة كبرى في طرقات البلدة ، يتقدمها العلم الاحمر وهي تطالب بـ :

ـ الزبدة بـ ٣٠ فلساً الكيلو .

– واللبن بـ ٥ فلوس

– والبيض بـ ٢٦ فلساً الدزينة .

وكانت المتظاهرات ينطلقن من حانوت الى حانوت ليطلبن الى التجار التقيد بهذه الاسعار .

وازمعت ربات البيوت يومـــاً الذهاب الى سوق هينـين ليـاتار . وما إن وصلن حتى نشبت المنازعـات بين البائعين والشاريات . وقلبت احداهن واجهة للبضائـع . وكانت شارة الهجوم . وتطايرت في الهواء من كل ناحية ، حبـــات الجزر واللفت والبطاطا والثمار ! اما نحن الصغار ، فكنا نقفز في سلال البيض واقدامنا مجتمعة . واشتركنا في المعركة ، وكانت طلقاتنا مؤلفة من كل ما يقع في ايدينا من بقايا هذا التخريب المرح ، بجميع الطيبات التي كانت تعز على جيوبنا ...

وما كان لنا ان نفهم يومئذ ، ان المسؤولين الحقيقيين عن ارتفاع الاسعار ، هم كبار الرأسماليين ، وتجـار الموت الذين يكنزون الذهب والفضة ، اولئك اللذين نجحوا في تحويل نقمـة المستهلكين وغضبهم الى صغار التجار واصحاب الحوانيت والباعة المتجولين .

* * *

وبلغتُ السن التي يبدأ فيها ابن العامل يكدح عند الآخرين ليعود على أهله ببعض الدريهمات ...

وكان الفلاحون في القرية يستأجرون الصغار لشرْيفة الحقول. كنا نمضي في الحقول ، جماعات جماعات ، وآلة الشَرْيفة في ايدينا ، متباعدين بعضنا عن بعض مسافة مترين ، وعيوننا مثبتة الى الارض ، لنقطع الاشواك المضرة والاعشاب الطفيلية، وكنا ننطلق طوال النهار من شروق الشمس الى غروبها ، مستغرقين في اعمالنا ... وكان صاحب المزرعة يراقب هذه الاعمال فيما بعد... وكان العامل الصغير منا يكسب ١٤ فلساً في نهار عمل مؤلف من ١٢ ساعة .

كان يصاحب دراستنا ، في معهدي الاول ، تعليم ديني ، ولم يكن اهلي يهتمون كبير الاهتمام بالدين . ولكن كان من عادة العمال ان يعتمدوا الاطفال وان يتناول هؤلاء القربان المقدّس . وكان الكاهن قد اختارني شماساً ، ومرتل جوقة ، فأعانني هذا الاختيار على توفير بعض الفلوس لاهلي .

وافتتحت في تموز ١٩١٢ مرحلة جديدة من مراحل حياتي ، اذ قدمني استاذي السيد افيرلان الى امتحانات الشهادة الابتدائية، فكنت الاول بين الناجحين ، وهكذا اتيح لي ان ابدأ العمل في المنجم قبل بلوغي الثالثة عشرة .

دخلت المنجم عاملاً في تنقية حجارة الفحم، في الحفرة رقم ٤ ، ولم يكن عملي شاقاً ولكنه كان يتطلب انتباهاً شديداً . وكان الفحم يصل الينا على لوحة معدنية كبيرة ، وكان علينا المسارعة

الى نزع الحجارة منه وكان عامل التنقية الماهر يتوصل الى كسب ٢٥ — ٣٠ فلساً في النهار .

وفي الرابع من كانون الاوّل ، كان عمال المناجم يحتفلون بعيـــدهم التقليدي وهو عيد السانت بارب . وفي الاسبوعين الاخيرين من تشرين الثاني ، كانوا يعملون خلال ساعات اضافية ، ليزيدوا في مكاسبهم . وكان من الطبيعي ان اقتدي برفـــاقي العمال ، فربحت خلال الاسبوعين ثلاثين فرنكاً بمعدل ١٢ — ١٣ ساعة عمل يومياً .

وفي تشرين الثاني ١٩١٣ ، حين عاد اسبوعا السانت بارب ، اعلن العمال الاضراب . وقد سمي هذا الاضراب باسم العيد . وكانت نقابة بيلي القديمة قد اندمجت في نقابة السي. جي. تي. ولم يستمر الاضراب المشترك طويلاً ، ولم يتجـــاوز بضعة ايام . وانتصر العمال واضطر اصحاب العمل الى التقيد بمدة الـ ٨ ساعات للعمل اليومي في اعماق المناجم .

وكانت عناصر اللهو والتسلية قليلة في القرى ، فانضم كثير من الفتيـان الى الفرقة الموسيقية البلدية ، وتعلمت انا النفخ في البوق . وكنا نعتمر بقبعات رسمية جميلة ، ونمر صفاً صفاً في الطرقات ، عازفين اعذب الالحان ، وكنا نرتحل احياناً الى القرى المجاورة والمدن ، لنقدم هناك اغانينا ، ونطرب سكانها بروائعنا .

وهكذا كانت فرقة الموسيقى البلدية تتيح لنا بعض الرحلات السعيدة ، وبعض السيـــاحات الى شواطىء البحر ، وما كانت تكلفنا الا حضور التجارب ، والنفخ في الابواق...

وفي اواخر حزيران ١٩١٤ اعلن رئيس الفرقة ، بعد احدى هذه التجارب ، نبأ مؤامرة سيراجيفو . واحس البعض بخطر الحرب ، ولكن اكثرية الناس كانت لا تؤمن بامكان وقوعها :

ـ « الحرب ؟ ليس ثمة من حرب ! فهي مستحيلة في عهدنا الراهن ! فان نشبت فلن تستمر اكثر من شهر ، بسبب الوسائل التي تستخدمها الجيوش الحديثة... وسيفنى الناس جميعاً..

وفي يوم السبت الاول من تموز ، اعلن النـاطور ، بجرسه ، النفير العام . وتجمعت الجماهير امام الاعلانات ولوائح الاسماء ..

وفي اليوم الاول ذهب عمي ليون . ولم اره بعد ذلك . واعلن فقده سنة ١٩١٥ في « بوسيجور » . وجرح عمي الآخر ادمون ، في الاسبوع الثالث من الحرب ، في معركة مورانج ، وأسر ثم عمل في مناجم سيليزيا ومات في الاسر .

بعد اعلان نبأ الحرب ، تابعنـا العمل في المنجم عدة ايام ، ولكن كان عدد العمال يتدنى كثيراً ، ثم توقف كل شيء ، وتلقينا الاوامر باخراج ادوات العمل من المناجم ...

واستبد القلق بالقرية كلها . وكانت الانبـاء سيئة جداً . وكنا نظن في البدء ان الحرب تجري بعيدة عنا ، على بعد مئات

من الكيلومترات نحو الشرق ، في الالزاس واللورين ... ولكن اكتساح الالمان بلجكا ادهشنا واذهلنا . فقد سقطت قلاع نامور وليـاج في ايدي الالمان ، وكنا نعدُّها امنع من ان تؤخذ .

وفي ذات صباح سمع دوي المدافع ، واعلنت رؤية دورية من الفرسان الالمان ، وكان ذلك في ٢٦ حزيران ، وفي اليوم التالي مرت الجيوش الالمانية في اتجاه لان .

وفي ٣٠ ايلول كان سيـاق الجيوش الى البحـر مستمراً ، فتركت نوايل مع جدي ، وكانت السلطات تجند جميع الرجال الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و ٤٨ عاماً ، بل جميع القادرين على حمل السلاح . فأزمع ابي وجدي النجـاة بنفسيهما ، وكان عليّ ان اصحبهما ، وزودتني امي بأربع قطـع من النقد ، من فئة المئة فلس ، وضعتها في كيس ، ودسسته في ثيابي . وكانت امي موقنة بانهـا لن تلبث الا قليلاً حتى تراني ، واراد ابي ، قبل مغادرته البيت ، ان ينزل محصوله من البطاطا الى القبو . وتواعدنا على اللقـــاء في بون افندان ، وهي اول مرحلة على طريقنا ، ولكن هذا لم يكن ممكناً . فبعد ساعات من مغادرتنا القرية احتلها الالمان ، وكان عليّ ان انتظر اربعة اعوام للقـاء اهلي .

ولبثت طوال هذه المدة دون ان اتلقى شيئاً من انبائهم ، وهم ايضاً لم يعلموا شيئاً عن مصيري ؛ اما قريتنا ، وهي واقعة

على حدود المنطقة المأهولة ، وراء الجبهة الالمانية مباشرة ، فقد تحولت الى خرائب ، عند نهاية الحرب ...

وهمت مع جدي شهراً كاملا ، في الطرقات ، يدفعنا مد الجيوش وجزرها نتأرجح بينهما في الآفاق . وتعرفنا الى كل ناحية في البادي كاليه والشمال ، وآرمانتيير ، وسان بول ، وباتون ، ثم كنا نعود ، دائماً ، الى تلك الامكنة لا نريد مبارحتها ، وكانت الحرب تطردنا منها بلا انقطاع ... وكان رجال الدرك يطاردوننا ، ويدفعوننا ، قاطعين علينا الطريق الى منطقة الجبهة ، ولكننا نعود ، فتلك المنطقة الدامية المكتسحة ، المنقلبة رأساً على عقب ، كانت رغم ذلك كله وطننا .

كنا اذا حل الليل ، ننام في مخازن المؤونة ، ونغتذي بالبطاطا التي نقتلعها من الحقول . وكان الجنود الانكليز الذين نصادفهم في الطريق ، يقاسموننا ما معهم من اللحم المحفوظ . ولجأنا يوماً الى عامل مناجم اشتراكي ، ولبثنا في ضيافته عدة ايام .

لقد عرفت الحرب : لا حرب اللوحات الزيتية وملاحم الشعراء . لا حرب قصائد « ديروليد » الحماسية ، بل الحرب الفظيعة ، ملتهمة الرجال ، وزارعة الرعب والموت...

الحرب التي عرفتها هي الحرب الحقيقية : المنزل المفقود ،

وحياة التشرد في الطرقات ، بلا سقف يُفاء اليه ، ولا خبز ولا مال ولا عمل ، انها المدفع التساوي الرشاش واعقاب البنادق في ايدي رجال الدرك الغلاظ... الحرب التي عرفتها ، هي الجنود القتلى المساكين الممدّدين في الحفر على جوانب الطرق قريباً من جثث الجياد... الحرب... هي الحقول المهجورة، والقرى الكئيبة الخالية، والبيوت المتناثرة الاحشاء.. وعربات الاسعاف الملأى بالجرحى والمحشرجين... والحرب ، بخاصة ، هي ذلك السيل الطويل، الممتد بلا انقطاع ، ولا نهاية ، يظهر فجأة على الافق المشتعل بحمرة الحرائق ، هذا النهر الذي يجر في تياره النساء والاطفال والشيوخ ، مع عدد لا يحصى من الاكياس القذرة الملأى بالخبز اليابس العفن، او هذا النهر الذي يدفع امامه العربات الملأى بالاثاث المخلع الحقير ، والفراش المتناثر صوفه ، والوسادة الهزيلة... حين تنتحب النساء ، والاطفال يتشبثون باذيالهن ، وبعضهم يغمغم بكلمات غير مفهومة... لا تتغير... والشيوخ يقضمون الخبز اليابس ذاهلين.. في تلك الايام اقسمت على النضال بجميع ما اوتيت من قوة ، وكفاح هذه الكارثة الانسانية البشعة ، ومناضلة اولئك الذين يبيئون لها ظروفها ويعيشون منها ويتاجرون..

لقد اقسمت على الدفاع عن الشعب ، وهو الضحية الخالدة للحروب...

* * *

وفوجئنا يوماً بين نو – ليه – مين وفركان ، بلعلعة المدافع الرشاشة ، ونظرت فاذا نحن في غمرة المعركة ، فايقظت جدي النائم في فجوة بين الصخور على الاوراق اليابسة ، وانطلقنا في الظلام المخطط ببروق الموت .

كنت قد انفقت قطعتين نقديتين من القطع الاربع التي زودتني بها والدتي ، وكنت احمل القطعتين الباقيتين في كيس علقته بعنقي.. ويوماً لم اعد اشعر به، فتحسسته فاذا به ممزق... هكذا فقدت كل ثروتي !

واخيراً قبض علينـــا رجال الدرك ولم يعبأوا بصياحنا واحتجاجنا بل قادونا في اول الامر الى سراي اوشل ثم «عبأونا» في سيارات كبرى ، مع مساكين آخرين، مجمعين عن الطرقات، وبلغت السيارات بنـا بلدة سان بول ، وهناك كوّمونا في مركبات لشحن البضائع، – وكنا ثمانية جياد واربعين رجلاً – واهتز القطـــار وتحرك في بطء ووجهته اواسط فرنسا . ولم أنفصل عن جدي ، بل كنا مندفعين الى المجهول جنباً الى جنب، وكانت القطارات تمر ملأى بالجنود ، لقد تركنا الجبهة وراءنا ولكن الحرب كانت ماثلة لعيوننا وكأنها تتعلق بنا...

بعد رحلة استمرت خمسة ايام طويلة حسبنا انها لن تنتهي ، توقف قطارنا في غيريه ، في « الكروز ». وبلغناها في الثاني من تشرين الثاني وكان « يوم الموتى » ، ثم اتجه قطارنا على خط ضيق وكان يترك في كل محطة بعض ما في جوفه من لاجئين ، ونزلنا

انا وجدي في محطة جينوبا ، واقتادونا مع سبعين لاجئاً آخر الى مديرية كالونيا .

وفي القرية افردوا لنا بيوتاً وجعلوا كل اربعة لاجئين في غرفة . وكان السكان يعطفون علينا غاية العطف ، فيجهدون ليجعلوا منفانا أخف وطأة وارحم داراً .

كانت تلك البلاد رائعة الجمال . فهي مكسوة بالغابات ، كثيرة التلال والوديان . كانت رباها ضاحكة مشمسة تتفجر منها زقزقة العصافير ، وخرير الينابيع ، وكانت تؤلف تناقضاً ظاهراً مع سهول الشمال الكئيبة الغائمة .

وحل الشتاء مطيراً بارداً . فلم يكن ملائماً للنزهات الطويلة والرحلات ، فقصدت الاستاذ سيليريه في كلونيا ورجوته ان يجعلني في عداد تلامـــذته . وكنت قد تركت الدراسة منذ عامين ؛ رضي الاستاذ سيليريه ، وهكذا استأنفت الدراسة .

شجعني سيليريه اكبر التشجيع ، واذكى نشاطي وحرك همتي للعمـــل . وفي شهر آذار ١٩١٥ قدمني الى مسابقة عامة فنلت الجائزة الاولى في الانشاء . وكان الموضوع : « اي شأن من شؤون الحرب استأثر باهتمامك دون سواه » فما كان عليّ الا ان اروي ذكرياتي .

اعجب السيد سيليريه بنجاحي ، ولعله وجد فيه مادة للفخر ، فأراد ارسالي الى « غيريه » لكي اتم دراستي ، وكان يرى ان

الحظ قد يسعدني فأصبح معلم مدرسة او استاذاً في كلية ، فرفضت ، لقد كانت الدراسة تعجبني ولا شك ، ولكنني كنت واثقاً ، رغم ذلك ، بأن الحرب لا تلبث ان تنتهي ، وان بوسعي بعد ذلك العودة الى نوايل غودو ، حيث التقي ذويّ ؛ وكانت هذه الافكار تدفعني للعمل في سبيل كسب بعض المال .

كان جدي يعمل في مزرعة ، اما انا فقد رضي احد المزارعين بأن اعمل عنده خادماً . وكنت اتناول شهرياً ١٨ فرنكاً في الصيف ، وثمانية فرنكات في الشتاء ، مع الغذاء .

في تلك الايام نشأت معرفتي بالفلاح . لقد كنت اعرف العامل وحياته البائسة ومصيره القاتم ، وشجاعته في العمل ، وكرمه وبساله ، الم يكن جدي امام عيني ، مثلاً دائماً ونموذجاً صالحاً ؟ وحين رأيت الفلاح الفرنسي ، عن كثب : اعجبت بفضائله الثابتة ، وعناده الباسل ، ونشاطه ، وحسه المرهف ؛ كان الفلاح اخاً للعامل ، اخاً بائساً مثله ، يعاني الاستثمار والاضطهاد مثله ايضاً ، ومثله كان ضحية معتادة لمجازر الحروب .

كنت انهض مع الفجر ، فاعتني بالماشية ، وانظف الاسطبل واقود البقرات الى المرج .

وعند حلول الموسم تعلمت الحصاد ، فكنت اقطع سنابل

القمح والذرة ، بالمنجل ، واجمعها في حزمات . وكان عليّ ان اقتلع البطاطا والشمندر من الارض المبتلة بأمطـــار الموسم ، وان اعمد الى الحراثة في الخريف وتمهيد الارض لبذر القمـح . ثم حل موسم الاعمـال الزراعية المتعددة : وكان الفلاحون ينطلقون ، واصابعهم تكاد تتجمد من الصقيع ، للاحتطـــاب من الادغال ، وربط الحزمـات ، واقتلاع الاعشاب اليابسة ، وحوالي اواخر الشتاء ، كنـا ننزع الاوراق عن العوسج ، ونقطع اغصان السنديان ، وننظف الحقول من الاوراق اليابسة ، وكنا نلبث ، امد الايام الممطرة ، في العنابر ، لكي نصلح من شأن الادوات الزراعية ، كالعربات الصغيرة والمعـــاول ، والمناجـــل والمذاري الخ ... وفي السهرة كنـا ننزع قشور الكستناء ، فالكستناء مع اللبن الصرف ، كانت طعام عشاءنا...

وتعرفت الى جميـع اهل القرية ، واكثر سكان القرى المجاورة ، وكانوا جميعاً يعيشون حياة بائسة الى ابعد حدود البؤس ، عدا بعض المزارعين الموسرين ، وهم قلة . ومـا كان الفلاحون في تلك القرى يعرفون للحم طعماً ، اما ثيابهم فمهلهلة لا تقيهم زعازع الشتاء .

وخلال سهرات الشتاء الطوال ، كانت الاحاديث والمطالعات الكثيرة تذكي فضولي ، وتوقظ ادراكي ، وتستعجل نموي .

وكانت مقاطعة « الكروز » ولا تزال في طليعة المقاطعات وعياً وادراكاً . وكان ترتيبها في عام ١٩١٤ انها اولى المقاطعات

حيث تغلب اصوات الاشتراكيين. وكانت الافكار الاشتراكية فيها واسعة الانتشار، وكان مناضلوها ملتهبين حماسة واندفاعاً، فتراهم دائماً في طليعة الحركة الشيوعية، وكان الفقراء من السكان، اولئك الذين لا ارض لهم، يذهبون الى باريس، ليقضوا فيها شطراً من العام، عاملين في البناء، ثم يعودون الى مقاطعتهم ليعملوا في الارض زمناً آخر، او يحوكوا على انوالهم الصغيرة. وكان هؤلاء العمال البناؤون اثناء اقامتهم في باريس يتمرسون بالسياسة وينخرطون في النقابة، ويطالعون الصحافة العمالية، ويشاركون في الاجتماعات او ينضمون الى الحزب الاشتراكي، وكانوا لدن عودتهم الى القرية، يتابعون تطور سياسة البلاد، من الناحية النقابية والعمالية، ويطلعون على الصحافة الثورية، ويشركون فيها سائر عمال البلاد وفلاحيها.

كان سيدي يطالع جريدة «الاومانيته» (الانسانية) التي كانت تصدر يومئذ بادارة «رونوديل» وكان الاب ميناجيه، وهو عامل معمار، ذو عشرة اولاد وميول ثورية، ينادي دائماً بان مصالح العمال تقضي بوضع حد للحرب، لانها لم تكن ناشبة للدفاع عن الوطن، بل انها كانت صراعاً بين لصوص وقاطعي طرق رأسماليين، يريدون زيادة اراضيهم وارباحهم، بعضهم على حساب بعض، ويتعاركون في سبيل اعادة توزيع المستعمرات. وكان مناجيه يشير الى خطب جوريس ونبوءاته ضد الحرب العدوانية على الشعب العربي في

مراكش ، وكان يردد قول الخطيب العظيم : (تحمل الرأسمالية في كيانها الحرب ، كما تحمل الغيوم العاصفة » .

وكان ميناجيه يهاجم فكرة « الحرب الى النهاية » ويفضح اهداف الحروب الاستعمارية ويدعو العمال والفلاحين الى المطالبة بسلم سريعة دون قيد ولا شرط... في تلك الايام العصيبة حدثني ميناجيه عن « زيمروالد » و« كيانتال » ، وهما قريتان صغيرتان ضائعتان في مجاهل الجبال السويسرية ، ومنهما ارتفعت ، اول مرة ، بين سنتي ١٩١٥ — ١٩١٦ ، ومن خلال دخان ميادين القتال الخانق ، ارتفعت اصوات فئة مجيدة من الاشتراكيين من بينهم لينين والبلاشفة ، المخلصين للاممية البروليتارية العمالية وللثورة .

هكذا تضافرت ذكرياتي والمناقشات التي كانت تدور في السهرات ، والانباء التي تبلغني ، عن الجهود الاولى لاعادة تنظيم الحركة الاشتراكية ، فأدت بي الى اتخاذ موقف حاسم ضد الحرب ، يزداد قوة مع الايام . فكنت اقرأ كل يوم صحيفة « الشعبي » حيث كان يعتبر حزب « الاقلية الاشتراكية » عن افكاره .

كنا على مئات الكيلومترات من الجبهة ، ولكن الحرب كانت ماثلة امامنا ، فهي تضاعف الضحايا من حولنا ، وتضاعف ثواب الحداد ، وتزيد في الآلام ، وتحصد ازهار شبيبتنا ، وكان جدي قد فقد ولدين في الحرب ، وكان يحرم

نفسه الضروريات ، ليرسل كل يوم احد رزمة من الطعام لولده الآخر الاسير . فهو لذلك يؤمن بضرورة النصر اما انا فكنت اعارض بشدة ، كل ما يؤدي الى اطالة عمر المجزرة .

كنت متعطشاً الى المعرفة ، ولذلك كنت اقرأ كل ما يقع بين يدي . فالتهمت كتب جول فرن ، ودوماس الاب ، وكتابي «البؤساء» و«العاملين في البحر» لفيكتور هيجو ، وجرمينال والارض والمال «لزولا» وجاكو المفترس لأوجين لوروا والمتمرد لجول فاليه ، وقد اعارني السيد سيليريه هذه الكتب كلها .

اما كتاب «عشرون الف فرسخ في اعماق البحار» فقد ألهب خيالي ، وكنت اعجب بطباع القائد نيمو — بطل هذه القصة — اكثر من اعجابي بمغامراته الخيالية . وكان يمثل في نظري عبقرية العلم الخارقة المجهولة التي تنتصر على كل شيء ، عبقرية العلم التي ستغير الكون والناس حين تغدو حقاً في خدمة الشعب .

ثم تحولت الى كتاب «الكونت دي مونت كريستو» ، واكبر ما اعجبني في هذه القصة دور المال في المجتمع ، واهميته القصوى ، فبعد اكتشاف الكنز ، اصبح دانتيس انساناً كاملاً ، وموجد عدالة ...

وكنت احب ايضاً طيبة جان فالجان ، ضحية مصيره الغاشم وكان في البؤساء ، بخاصة ، شخصية غافروش ، غافروش

العجيب ، الذي يتحدى الجيش من خلال الحواجز والبيوت ، غافروش الصعلوك الذي كان يغني ، فترتفع اغنيته لتطغى على طلقات البنادق ...

وملأني وصف البحر وصراع جيليات في كتاب « العاملين في البحر » حماسة ونشوة ، وكان الهدير الوحشي يبلغني من خلال صفحات هيجو الملهمة ...

ومرت الاعوام ... وجدي يعاني كآبة الوحدة ، في عزلته بالريف ، بعيداً عن موطنه القديم ، وهو على رغبته الشديدة في ثأر ساحق ماحق ، وهزيمة نهائية يمنى بها الاستعمار الالماني ، دفع رغبته في رؤية غليوم الثاني « المحتال » مشنوقاً ، فقد كان — مع ذلك كله — يتمنى سرعة انتهاء الحرب ليعود الى بيته وأهله ، وخانه الصبر ، ولم يبق في وسعه الاحتمال ، فأزمع مغادرة « الكروز » ، والدنو من الشمال . وفي الثالث والعشرين من آذار ١٩١٧ ، ركبنا القطار من بوساك ووجهتنا باريس .

ورأيت باريس اول مرة ، في غمرة الحرب . وكان الالمان على بعد ٧٠ كيلومتراً من العاصمة ، والطائرات الالمانية تحلق في سمائها من حين الى حين ، ملقية قنابلها ؛ وكان جو العاصمة متوتراً كئيباً ؛ وذهبنا الى مركز اعاشة اللاجئين ، القائم في اكواخ حقيرة خربة ، وفي المساء رحلنا الى اميان . ووجدنا عملاً في دروي لي اميان ، في منشرة للخشب ، حيث

كان يعمل ايضاً قريب لنا لاجيء مثلنا من الشمال .

صعدنا الى مركبة القطار مع جنود عائدين الى الجبهة ، بعد انقضاء ايام عطلتهم ، وحطابين يقصدون العمل حيث نقصد . وكانت الرحلة فظيعة بائسة ، فالجنود سئموا الحرب ، وانتابهم القرف واكثر من القرف ، وكان اكثرهم يتمنى « الجراح البليغة » التي تتيح له النجاة من ذلك الجحيم .

وفي بلدة دروي طلب الينا برونيل صاحب العمل ان نقود سفينة صغيرة لنقل الخشب ، وكانت تسمى « فرنسا » فكنا ننتقل بها بين كوربيار وابفيل ، طوال نهر السوم ، موسوقة بالخشب ...

وسرعان ما تعلمنا الامساك بالدفة ، ورمي القلس الى قائد الجياد التي كانت تجر سفينتنا ، واستخدام المرساة ، والاشراف على وسق السفينة ، وكنا نرقد في غرفة صغيرة ، ونتناول طعامنا على متن المركب ، فان لم اكن يومئذ لا القائد نيمو ولا البطل جيليات ، فقد حققت على الاقل شطراً من الحلم الذي كونته لدن قراءة « المتشرد » لهيكتور مالو : وهو ان أجتاز فرنسا من اقصاها الى اقصاها على بيت عائم ، واتعرف الى وجوهها المختلفة ..

ما اشد اختلاف اراضي بيكارديا الخصبة ، التي يجتازها نهر السوم عن تلك التلال الغرانيتية في الكروز ، فهنا على ضفتي

النهر ، وبخاصة في جوار اميان ، تمتد الجزر الصغيرة الخصبة ، والملاحون ينتقلون في مراكبهم المستطيلة الموقرة بجميع انواع الخضار والثمر . فالارض ثمة غنية ولود ، وتصورت ان سكان ارض كهذه ، يجب ان يكونوا جميعاً اغنياء موسرين ، ولكن سرعان ما خاب ظني ، فلقد وجدت هنا البؤس الذي طالعني في كل ناحية من نواحي فرنسا .

وكان في تلك المقاطعة ، الى جانب الزراعة النهرية التي تمتد حقولها طوال ضفتي النهر ، مختلفة الالوان ، صناعة النسيج والقطن والمخمل والخام ، ولكن الثروات الفاضحة ، كانت تتكدس في خزائن اصحاب الاعمال ، وتبنى على افظع انواع الاستثمار البشري ، وكان جميع سكان وادي السوم ، المجدون في اعمالهم ، يكادون يختنقون تحت اعبائهم الباهظة الثقيلة ، ويتكدسون في المصانع بالآلاف. وكنت تجد في ضاحية اميان كثيراً من النساء اللواتي يعملن في بيوتهن ، بشروط قاسية ان لم نقل مميتة . وما كان اجر العامل ليتعدى الاربعين بارة في اليوم ، وحين قارنت حياة عمال المناجم في الشمال ، وحياة فلاحي الكروز ، بهذه الحياة البائسة في حوض السوم ، ظهرت لي تلك ، على صعوبتها ، اخف وطأة ، وارحم مصيراً .

كان الاب والام في حوض السوم (والاولاد عند بلوغهم سنّ العمل) يذهبون جميعاً الى معامل الحياكة والنسيج ، وكانوا يعملون يوم الاحد الى طبخ كمية كبرى من الحساء ،

في جفـــان ضخمة ، تكفيهم طول الاسبوع ؛ فربة البيت لا يسعها ، وهي منهمكة في العمل ، ان تعمل ايضاً في إعداد الطعام . وكانت احياء المدن والقرى والحقول الغاصة بالسكان تزخر باسراب من الاطفال المتشردين الشاحبين ، بين كسيح ومصدور . وكان عدد الاطفال المشوهين مرتفعاً جداً ، وكان شطر كبير من السكان العاملين ، يجد في المسكرات متنفساً لآلامه ، وارضاً تهبه السلوى والنسيان .

وفي حزيران ١٩١٨ عينت في مكتب لفحص المجندين ، فكنت اجد بين كل خمسة عشر رجلاً من « دروي » ثلاثة عشر صالحين للخدمة ، اما في حوض السوم فكان المعدل ثلاثة رجال فقط . وكان هذا اوضح دليل على وقوع تلك المنطقـة ضحية استثمار لا نجد مثله في كل المقاطعات الفرنسية .

كانت المشكلة الاجتماعية ترتبط ، اكثر فاكثر ، في ذهني، بمشكلة الحرب ، فالضحـايا هم الضحايا هنا وهناك ، والاسباب واحدة !

ولكن ها هي شمس الثورة ترتفع على رحاب الشرق . ففي اوائل آذار ١٩١٧ نجح العمال والفلاحون الروس في خلع القيصر ولكن احزاب البورجوازية الصغيرة والمنشفيك، وقد رفعتهم الثورة الى مراكز الحكم ، ارادوا استمرار روسيا في الحرب، وانقاذ النظام الرأسمالي، وبعد ثمانية اشهر من الجهود المستمرة الضارية ، نجح لينين والبلاشفة في فضح سياسة المنشفيك وانصار « الحرب

الى النهاية » واطلاع الجماهير على حقيقتها الدامية ، هكذا جاءت ثورة اكتوبر الاشتراكية فدكّت دعائم حكم الرأسماليين وكبار الملاكين العقاريين .

واقام الفلاحون والعمال ، بقيادة لينين وستالين ، نظام حكمهم الخاص ، وهو نظام السوفيات . واضحت المصانع الكبرى ، والمناجم ، والمصارف ، والخطوط الحديدية ، ملكاً للامة ، وللشعب ؛ واعيدت الارض الى الفلاحين ! والشعب الروسي ، وهو في غمرة ثورته التحررية ، اعلن السلام الى العالم.

دفعني تحمسي للثورة الروسية الى العمل النضالي . فكنت ابحث في نهم عن انباء ما يجري هناك ، فاطالع الصحف والمجلات ، والكتب ، ولكنني ما كنت اجد دائماً ما ارجوه . فالحكومة والبورجوازية واكثر الصحف كانت « تناضل » ما وسعها « النضال » ، بالكذب والافتراء والدس على النظام السوفياتي الجديد...

غير ان هذه الحملات الكاذبة لم تحدث في اوساط العمال اثرها المطلوب . فقد كان اقلهم ثقافة يعرف ان ذلك الذي يبنى في روسيا هو جمهورية العمال . والقضية التي كان يناضل العمال الروس في سبيلها ويسقطون قتلى في ميادين الثورة ، انما هي قضيتهم ، وقضية العمال في جميع بلدان العالم . ومن فوق خنادق الاعداء ، والمدن المشتعلة المكتسحة ، والمناطق التي حصدتها المدفعية وحولتها الى صحاري جدباء ، حيث لم يبق الا

الموتى والاشباح ، من فوق هذا كله تصاعد النداء الذي رددته الثورة الروسية ، نداء كارل ماركس : « يا عمال العـــالم ، اتحدوا ! »

كنت كلمـا غادرت السفينة ، ونزلت الى البر ، أتصـل بالمناضلين الاشتراكيين ، ووجدت في اميان فئة فوضوية واسعة النفوذ ، ولكنها لم تكن لتفقه شيئاً مما يجري في روسيا .

في آذار ١٩١٨ ، ابان الهجوم الالماني الكبير على السوم ، صدر امر عن القيادة الفرنسية العليا ، يدعو جميع الشبان لمغادرة المنطقة المهددة بالغزو . فتلقى جدي هذا الامر كما لو تلقى ضربة دامغة . لقد كنت امله الوحيد الاخير ، ورفيقه الامين ، بعد ان ذهبت الحرب باكثر ابنائه . وعند ذهابي بكى جدي ! ..

قصدت غرانفيلييه في مقاطعـة الواز سيراً على الاقدام . وهي قائمة على بعد ثلاثين كيلو متراً من اميان . وهناك كلفونا بحفر الخنـــادق أمد شهر كامل ، واطلقوا سراحنا بعد ذلك . وكان الالمان قد بلغوا ضواحي اميان . وكانت قنابلهم تسقط كل يوم ، حول الكاتدرائية المحمية قدر الامكان ، باكياس من الرمل تحيط بها ، ولا ازال اذكر تقمص ازاء وحشية المهاجمين وبربريتهم ، ولا يحسبن احـد انني اقدس وثنيـــات الماضي ، او اتمسك باوهامه ، ولكنني كنت ولا ازال احب فن العمارة ، والابداع المتخذ من الحجارة خطوطاً وصوراً ، واحس باعجاب عظيم بمخرمـات الفن القوطي الرفيع ، وهي مظـاهر معجبة ،

خلفها عصر دائر . ثم أيقنت فيما بعد ، ان عصراً عظيما واحداً وحسب — هو العصر الاشتراكي — يستطيع ان يخلق ثقافة كبرى وينشيء روائع عظمى تنهض لتضاهي تلك الكاتدرائيات التي انشأها الايمان المضطرم في صدور العمل البنائين والمثالين .

بلغت الثامنة عشرة من عمري وقد مارست ثلاث حرف مختلفة : فكنت عامل منجم ، ثم خادماً في حقل ، فملاحاً في سفينة . ثم قدر لي ان اواصل خبرتي بالحياة فاعمل خبازاً ، من نوار الى تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، وكانت ظروف عملي تدعو الى الرثاء ، فقد كان المخبز ضيقاً يزخر بالبق والصراصير. وكانت مهمتي حمل اكياس الدقيق ، ومساعدة العمال الخبازين ونقل الحطب والخبز ، وتنظيف الفرن كل يوم .

* * *

واخيراً اعلنت الهدنة .

وعلمت ان اهلي انتقلوا ، عنـــد تراجع الالمان ، الى لانكسان ، في بلجيكا ، فانطلقت في اثرهم وقد نفـد صبري ، وحركني شوق مذيب الى معانقة اولئك الذين فصلتني عنهم الحرب .

والمسافة بين اميان وتورنيه تبلغ مئة وعشرين كيلو متراً . فسرت في صحبة بعض الرفاق ، سيراً على الاقدام ، مجتـازين المناطق المكتسحة المدمرة . ومررنا بنواحي اتخذت اسماؤها ،

في البلاغات العسكرية ، ما يشبه هالات الاساطير ؛ رأيناها فلم تكن اكثر من خرائب وآثار يشبه بعضها بعضاً ؛ هكذا تلاشى تنوع الحياة في وحدة التخريب ورتابة الموت . لقد ابقت الحرب مشاهد لا تنسى : من ادواح حُوْر ضخمة ، مسجّاة على جوانب الطرق ، وربى حفرت القنابل صدورها ، وافواه براكين موحلة ، وبحيرات مياه سود ، تطفو على سطحها آلات حديدية يتأكلهـــا الصدأ ، وحفر وهوات وأتاويه وخنادق ، واودية واسعـة تصل الاسلاك الشائكة والعوسج اليابس بين حافاتها . انها لمناظر الرعب !

وفي القرى ، او ما كان من قبل قرى ، يتظنى مكانها بآثار هذا الغبار الاحمر من بقايا القرميد المسحوق، ترى بعض الحجارة في الارض قد سلم من القنـابل ، وظل يوميء ، بصعوبة ، الى وجهة الطريق...ولم يكن امامنا ما نهتدي به الا بعض اللوحات المغروسة هنا وهناك في غير ترتيب ولا نظـــام ، وعليها تقرأ بحروف ملتوية حائرة : بيلي غراناي ، ليافان... هنا كل قبضة من التراب غمست بالتراب والدموع . نحن نسير على الغبـــار الذي كان جيوشاً ، وعلى الاديم الذي كان اجساماً تفيض بالحياة والبهاء . وكانت تطالعنا اسماء تبرز فجأة بروز الاشباح العائدة : نوتردام دى لوريت، وسوشيه، وليبرون ديزاراب... واخيراً بلغنا لان ، وكانت اكواماً فظيعة من البيوت المهدمة المحصودة ، حيث تتمطى الحفر الملأى بالمياه القذرة وتتثاءب في

وجه السماء ...

وفي احدى الامسيات ، بلغنا نواييل غودو . ورأيت القرية التي قضيت فيها طفولتي وهي بين اشداق الخراب ! وها منزلنا لا يزال قائماً ولكن منزل عمي الى جواره سحقته قنبلة . ورأيت المعامل مهدمة . اما الحفرة ذات الرقم ٤ حيث عملت ، فلم تكن الا سرداباً من القرميد والحجارة والاخشاب الضخمة والدعائم الفولاذية والجماجم... وكان الالمان قد نسفوا المناجم قبل انسحابهم وفجروا الديناميت في الحفر واغرقوها بالمياه ...

قضينا الليل في كوخ حقير ، فئنا اليه من قسوة الريح والامطار ، وفي فجر اليوم التالي له ، استأنفنا المسير وقلوبنا منقبضة كئيبة...

الخرائب... الخرائب دائماً امامنا... ها هي اورشي ثم بلجيكا، ها هي تورنيه وآث واخيراً لانكسان . وهناك وجدت اهلي . وما عدت اشعر بتتاعب السير المضني الطويل في نواحي امحت طرقاتها... ووهبتني نشوتي في معانقة امي وابي قوى جديدة . ونسيت ، منذ ساعتي ، اعوام الفراق الاربعة ، ومشاعر القلق المميتة ، وسائر المصاعب والاخطار ، كنت كالخارج من كابوس ، فحياتي ستعود سيرتها الاولى...

وفي الثالث من كانون الثاني ١٩١٩ عدنا الى نواييل، وعكفنا على العمل ، بشجاعة ، وسط الخرائب والدمار .

واستخدمت في البدء لاعادة بناء الخط الحديدي بين لان ودواي . ثم عدت للعمل في الحفرة رقم ٤ في مناجم « دورج » .

وكنت أزداد شغفاً ، يوماً بعد يوم ، بالعمل النقابي ، والحركة العمالية ، والنضال السياسي . وكنت اشعر بان في هذه الحقول ايضاً ثمة حاجة ملحة لاعادة بناء كل شيء .

وفي كل سبت كنت ابيع صحيفة « المنبر » النقابية . وكم كانت سعادتي عظيمة يوم نجحت في بيع ٣٢٤ نسخة منها !

كان موقف فرنسا من الناحيتين السياسية والاقتصادية يخلق ، على نحو سريع ، جواً ثورياً في اوساط العمال . فارتفاع الاسعار وغلاء الحاجات ، وسقوط قيمة الفرنك ، وازمة وسائل النقل ، وغلاء الفحم والسكر ، وصعوبات التحول من الاقتصاد الحربي الى الانتاج في عهد السلم . كان كل هذا يخلق اضطراباً لم تنجح في تهدئته جميع التدابير الحكومية ، كقانون « الثماني ساعات » الذي فرضته الجماهير على حكومة كليمانصو ...

وتمشت موجة من الاضرابات في ارجاء البلاد . ولكن لم يكن ثمة حزب ثوري منظم قوي ، فلم يؤد هذا الوعي العمالي الى نتيجة عملية ، ألم يقل لينين انه « لا حركة ثورية بلا نظرية ثورية ؟ » .

اخذت الطبقة العاملة تبحث عن طريقها ، يكتنفها اضطراب

عميق ، وتعترضهـــا تقاليد ما قبل الحرب ، وتفت في عضدها الروح الفوضوية النقابية ، والروح الانتهازية المسالمة... ومن ٣٤٠٠٠ عضو في سنة ١٩١٨ ارتفع عدد اعضاء الحزب الاشتراكي الى ١٥٠٠٠٠ عضو سنة ١٩٢٠ . وبلغ اعضاء الاتحاد العام للعمل (السي جي تي) مليونين ونصف المليون . وقامت الطبقة العاملة تطالب بوضع حد للتدخل ضد السوفيات ، وتسريح الجيش على الفور ، واطـــلاق سراح المعتقلين السياسيين والعسكريين . وكانت الطبقة العاملة الفرنسية تفهم حق الفهم النضال المجيد الذي تخوضه الجماهير الروسية وتحاول ان تعينها ما استطاعت الى ذلك سبيلاً .

انخرطت في الحزب الشيوعي وفي النقابة، في آذار عام ١٩١٩، وانضممت الى الحزب مع رينيـه فرواسار ، وهو فلاح اعدمه الالمان بالرصاص فيما بعد ، بمقاطعة اليون عام ١٩٤٢ . وكنت اناضل ، في قلب اللجنة للانضمام الى الاممية الثالثة . اما في نقابة عمال المناجم فكنت اناضل لضم هذه النقابة الى (السي جي تي) ويا له من عهد من النشاط السياسي العنيف، والمنازعات الصاخبة! ولقد صوتت الفرقة الاشتراكية في نوايل ، بعد عدة اسابيع من اجتماع شعبي كبير خطب فيه فايان كوتوريه ، صوتت للانضمام الى الاممية الثالثة بـ ٦٦ صوتاً مقابل خمسة ، وكان ذلك نصراً حقيقياً في منطقة يسيطر فيهـا القادة الاشتراكيون الذين ما كان بوسعهم ان يمنعوا الانسحاب من الاممية الثانية ، لكنهم

يؤخرون الانضمام الى الاممية الثالثة(١) .

وفي مؤتمر ستراسبورج (شباط ١٩٢٠) صوت ٤٧٩ نائباً عن البادي كاليه ، و ٣٦٣ كانوا ضد الاممية الثانية و١١٧ معها. وفي نهاية الامر انشطرت مندوبية البادي كاليه الى شطرين : النصف (٢٣٢ صوتاً) أيدت اعادة انشاء الاممية على اسس ثورية (وكان يمثلها لوجيه) والنصف الآخر بقيادة بلوم ، ايد الاتجاه اليميني المنشفيكي...

ونجح بعض تجار السياسة في اخفاء طلبات انضمامنا الى الاممية الثالثة ، فلم يكن امامنا الا مواصلة النضال ، وتكاثرت الاضرابات والحوادث في البادي كاليه والشمال ، عام ١٩١٩ ، وعاد عمال المناجم وعمال النقابات الاخرى الى الصراع . وبدا عام ١٩٢٠ اشد هولاً واقوى عواصف .

وفي شهر آذار ١٩٢٠ ، وفي غمرة الاضراب ، وحين تعييني

---

(١) ادت الحرب الى افلاس الاممية الاشتراكية وانهارها ، وباستثناء الحزب البلشفي ، نرى جميع الاحزاب المنبثقة عن الاممية الثانية قد غرقت في غمار سياسة الحرب ، وقام كل منها يؤيد البورجوازية في بلده . ومنذ اول نوفمبر ١٩١٤ اعلن لينين قائلاً : « ماتت الاممية الثانية... عاشت الاممية الثالثة » وفي آذار ١٩١٩ تأسست الاممية الشيوعية الثالثة ، وتجمع حول البلاشفة سائر الاحزاب العمالية التي كانت ترغب في استعادة مبادىء ماركس الثورية ، وكان القادة «الاصلاحيون» يناهضون الاممية الثالثة المتحررة من الانتهازية ، ويدعون الى بناء اممية تحفظ في صدرها الاحزاب الاشتراكية وقادتها المفلسين الغارقين في السياسات الحربية المتعاونة مع البورجوازية .

مندوباً عن قسم نواييل في اللجنة النقابية بدورج ، دعيت الى ثكنة الرماية رقم ٧٢ . وفي اثناء احدى العطلات اشتركت في مؤتمر عماني ، وانا لا ازال في بزة الجنود ، وخطبت اول مرة ، في الجماهير ، وناهضت يومئذ آراء نائب المنطقة الاشتراكي ، ودافعت عن اتجاهات الاممية الثالثة ، وكان عمال المناجم فرحين بالاصغاء الى احد ابناء منطقتهم يتحدث اليهم عن مشاغلهم ، وبؤسهم ، ويدلهم على طريق الخلاص التي شقها لينين : وكانوا يقولون وهم يتدافعون بالمرافق : «انظر... انه الصغير توريز... لقد كبر...»

وفي الثكنة ثابرت على المطالعة والعمل . وواصلت النضال ايضاً . وكنا نتناقش كل مساء في موضوع الثورة الروسية والاممية الثالثة او نرسل اسم مشترك جديد لصحيفة الاومانيتيه.

وفي كانون الاول عام ١٩٢٠ كان تأثرنا عظيما ونحن نتابع المناقشات في مؤتمر تور ، وكانت أحاديث كلارا زيتكان العارمة الحارة وخطب مارسيل كاشان ، تكهربنا.

واعطى اتحاد البادي كاليه هذه المرة اصواته للانضمام الى الاممية الثالثة بالاكثرية ، اي بـ ٢٦٧ مندوباً يتزعمهم كاسان وفروسار ، صوتوا للانضمام و ١٤٥ صوتوا للانضمام مع بعض التحفظ ، اما جماعة بلوم فقد اعلنوا حيادهم ودعوتهم الى « حركة جديدة » . وكان عددهم ٦٧ .

كان ذلك نصراً ساحقاً للاممية العمالية الثورية ، لقد عادت الطبقة العاملة الفرنسية تسير الى الامام . ونحن الشبان كنا نتنفس ملء صدورنا هذا الهواء الحر... ولكن امام الشيوعيين طريق طويلة.. وخبرة صعبة عليهم ان يكتسبوها ، ليعرفوا الرجال السياسيين المحيطين بهم ، حق المعرفة ، وليكتسبوا تجربة النضال والدربة فيه وليتعلموا كيف يتصرفون وفقاً للظروف الخاصة بفرنسا...